

جمعية التاريخ الحديث

تاريخ أوربّا

العصور الوسطى

تأليف

هـ. ١٠. ل. فشر

نقله إلى العربية

السيد الباز العريبي

محمد مصطفى زيادة



دار المعارف

جُمُعِيَّةُ التَّارِيخِ الْحَدِيثِ

تَارِيخُ أُرُبَّا

العَصُورُ الوُسْطَى

القسم الأول

تأليف

هـ. ١٠٠١ ل. فشر

نقله إلى العربية

الشَّيْخُ البَا ز العَرِينِي

مُحَمَّدُ مَصْطَفَى زِيَادَة

الطبعة السادسة



دار المغارف بمصر

تقديم الطبعة الأولى

نقدم هذا القسم من الجزء الثاني من الترجمة العربية لتاريخ فيشر لأوروبا ، وذلك بعد أن قدمنا الجزء الأول (الخاص بالعصر القديم) ، والجزء الرابع والأخير (الخاص بالعصر الحديث والمعاصر) . وعلى هذا لا يبقى لإتمام الترجمة العربية إلا نشر ما تبقى من هذا الجزء الثاني ، ثم الجزء الثالث (الخاص بعصر النهضة والإصلاح الديني والقرن الثامن عشر) .

ولنا أن نغبط بانصراف طائفة من أفاضل المؤرخين المصريين للقيام على الترجمة إلى اللغة العربية ، باذلين في هذا السبيل وقتاً ثميناً وجهداً مضمناً ، وما دفعهم لذلك إلا حرصهم على انتفاع أبنائهم الطلبة وسائر أبناء الوطن بشجرة من ثمرات التأليف الأوربي التاريخي ، اعتبرها النقاد تأليفاً من الطراز الأول .

ولكل جزء من أجزاء تاريخ فيشر صعوباته الخاصة به من حيث الترجمة ، ولكن الأجزاء كلها تشارك في صعوبة واحدة عامة ، وهي ضرورة التعبير عن المعاني التاريخية باللغة العربية ، بلجمة من القارئ لا بد لهم من بذل مجهود خاص ، لإدراك عالم من المعاني لا تحيط به تجاربهم ، ولا يمكنهم أن يتصلوا به إلا عن طريق التصور وطريق التقريب بينه وبين العالم الذي يعيشون فيه . وقد يظن ظان أن الأمر أمر إيجاد مصطلحات ، ولكن - في الواقع - ربما كان شأن المصطلحات أهون ما في المسألة كلها ، والشيء الأساسي هو تصوير المعاني .

وقد قلت إن هذه صعوبة عامة في معالجة الأجزاء كلها ، ولكنني أعدل عن هذا بعض الشيء ، فأقول إنها تنطبق بصفة خاصة على الجزء الثاني هذا ، لاختصاصه بالعصور الوسطى الأوربية وحضارتها المسيحية الغربية . ولندكر - على سبيل المثال - الفكرة الإقطاعية كلها ، أو فكرة السلطان الديني والسلطان المدني ، وهكذا . وقد يقول قائل : وكيف يصعب التعبير عن هذه

الأفكار للقارئ المصرى ، وفى تاريخ بلاده أشياء من الفكرة الإقطاعية ، وأشياء من فكرة السلطان ؟ وأقول إن هذا بالضبط هو منشأ الصعوبة ، هو منشؤها لأن الشبه الظاهر يخدع ، ويستلزم من القارئ أن يتخلى عما يعرف قبل أن يتلقى ما لا يعرف ، كما أنه يستلزم من المترجم أن يعرف الناحية الأوروبية على وجهها ، والناحية المصرية على وجهها ، وبهذه المعرفة يتيسر له أن يهتدى قارئه سواء السبيل .

وقام بنقل هذا الجزء من الكتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، خير من ينقل اللغة العربية مؤلفاً فى تاريخ العصور الوسطى الغربية ، إذ درسها فى موطنها على كبار مؤرخيها ، ثم كان بحثه الخاص فى المواضيع التى تلاقت فيها الحضارات الأوروبية والإسلامية ، ثم انهماكه سنوات عديدة فى نشر مؤلف أسامى للتاريخ المصرى فى العصور المقابلة لتلك العصور الأوروبية ، ومعالجته تعليم المادة فى المعاهد العالية وكلية الآداب بجامعة القاهرة ؟ ثم هو بعدُ يعاونه فى الترجمة أحد تلاميذه السيد الباز العرينى ، وهو كذلك يعالج تعليم المادة لتلاميذ التعليم الثانوى .

وللقارئ إذن أن يطمئن إلى أننا جمعنا للترجمة خير المؤرخين ، فى خير الظروف . وقد يجوز أن أضيف إليها طرفاً آخر ، ألا وهو أن ذلك التعاون بين الأستاذ وتلميذه كفيل بأن يكشف للمؤرخين طرقاً وسبلاً ، وأن يهديهم إلى وسائل ربما لم تكن لتتحقق لو قام بالأمر الأستاذ الجامعى وحده ، أو الأستاذ فى التعليم الثانوى وحده . فنحن نرجو ألا يقتصر استخدام الكتاب على المدرسين والطلاب الجامعيين فقط ، بل نحب أن نراه فى مكتبة المدرسة الثانوية ، يعمل فيه التلميذ تحت إشراف معلمه ، وسوف يجد فيه من الفصول الممتعة مايجب إليه التاريخ ، ويقوى فيه ملكة المقارنة والموازنة والتصور .

محمد شفيق غربال

تصدير الطبعة الأولى

هذا كتاب وددت منذ سنوات لو أننى قمت - أو قام غيرى - على إخراجه تأليفاً خالصاً فى اللغة العربية ، من مختلف المراجع الميسورة فى مصر ، لا نقلاً وترجمة من اللغة الإنجليزية فحسب . ذلك أنى أحسست بظماً شديداً إلى ذلك الكتاب فى عقول الطلاب ، جيلاً بعد جيل ، منذ توليت التدريس فى مواد العصور الوسطى الغربية والشرقية ، بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . فلما أعيتنى أوقات الفراغ ، وأعوزتنى الحيلة فى التوفر ، رأيت اختصاراً للطريق ، وإرواء لهذا الظم الشديد ، أن أنقل كتاباً من الكتب الشهيرة فى تاريخ العصور الوسطى من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ، وهى كتب غير قليلة . ولم يسر بخلدى وقتذاك - أى سنة ١٩٤٤ م - أنى سوف أصدف عن منشود طريق إلى طريق غير مختصر ، وأنى سوف أختار - مع جمعية التاريخ الحديث - كتاباً بقلم علم من أعلام المؤرخين الإنجليز ، ذى أسلوب سهل متع رفيع ، وعمق غير عادى فى الكتابة ، وتخريج غير مسبوق إليه فى الكتب المعروفة ، وربط بين الحوادث لا يطيقه إلا أصحاب القراءة الواسعة فى تجارب الأمم ؛ وهذا وذاك فضلاً عن إيجاز ليس من السهل محاكاته فى اللغة العربية ، لقلة المادة التى يستطيع الناقل أن يفترض وجودها لدى القارئ العربى فى كتب سابقة ، وفضلاً عن اختلاف القيم والمعانى والمصطلحات بين التاريخ الأوروبى والتاريخ الشرقى والمصرى فى العصور الوسطى .

والقيام على نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية يتطلب صفات ومؤهلات لست مؤكداً أنى مطوق بها كما أشتى ، وأهمها عندى بالإضافة إلى الاستعداد التاريخى - وهو شىء ليس بالقليل - أن يكون الناقل متمكناً من أدب اللغتين ، المنقول منها والمنقول إليها ، لتأدية معانى المؤلف فى أسلوب يحكى مستواه ، فى أصله ، لأن الأمر ليس بإيجاد مرادف عربى لكلمة إنجليزية ، والسلام على من اتبع القاموس وقنع بترجماته الحرفية الضيقة ، بل هو نقل كذلك لطريقة المؤلف فى

العرض والشرح والتأليف . ولذا تطلب النقل من الإنجليزية إلى العربية في هذا الكتاب تطويلاً اقتضاه الحرص على إيضاح العبارة في صورتها الجديدة ، لقارئها الجديد ، لا على حساب الأصل وصاحبه ، بل على حساب الناقل وشريكه وأوقاتها الضمنية من الفراغ . وتطلب النقل كذلك رجوعاً إلى مختلف المراجع الكبيرة في العصور الوسطى ، لفهم ما انطوى عليه إيجاز المؤلف أحياناً كثيرة من إشارات عابرة ، وتأدية هذه في عبارات عربية غير غامضة ، مع الاستعانة ببعض الحواشي القصيرة . على أني لم أعمد دائماً إلى ذكر هذه المراجع ، أو تعيين المواضع التي استقيت منها مادة الحواشي ، لأنها كلها مراجع ومواضع معروفة للعارف بتاريخ العصور الوسطى الغربية والشرقية ، في شيء من التفصيل .

وبهذا العمل ملأت معظم ليالي بغداد ، أثناء إقامتي ستين دراستين بالعراق ، على حين ملأ شريك لياليه في القاهرة بالأدوار الأولى من هذا العمل . غير أننا لم نستطع إخراج الكتاب كله مرة واحدة ، فرأينا إصدار القسم الأول منه في هذه الصفحات التي بين يدي القارئ ، على أن يصدر القسم الثاني مديلاً بفهرس شامل لمحتويات القسمين في المستقبل القريب . وسوف يرى القارئ فيما يرى بهذه الصفحات عرضاً تاريخياً لأوروبا العصور الوسطى على أنها وحدة حضارية متجانسة ، فيها من الخير والشر والقابلية في التناحيث ما هو - على أية حال - أصل من أصول الحضارة الأوروبية في القرن العشرين الميلادي . وسوف يرى القارئ فيما يرى كذلك أن المؤلف أطل على موضوعه من « شباك » أوروبي واسع عظيم الارتفاع ، وأنه استطاع أن يصور المنظور التاريخي الأوروبي الغربي في العصور الوسطى أعدل تصوير ، فعالج ظهور الإسلام^(١) ، وتكوين الدولة الإسلامية الأولى مثلاً ، على مقياس غير مقياس معالخته الدول الجرمانية ؛ واجتزا من تاريخ الدولة البيزنطية المديد ، وآثاره البعيدة في الشرق والغرب ، بموقفها العدائي من الصليبيين ، وهم في طريقهم من مختلف البلاد الأوروبية إلى الشام ، واعتبر تاريخ إسبانيا العصور

(١) تطلب نقل الفصل الخاص بالإسلام والمسلمين (ص ٥٩ - ٦٨) تعديلاً كثيراً في عبارة المؤلف في بعض المواضع ، دون مساس بإطار الموضوع أو جوهره . (زيادة) .

الوسطى تاريخاً لحركة المقاومة المسيحية ، وهى الحركة التى أدت إلى إخراج المسلمين نهائياً من أوروبا . لكن المؤلف أوسع لتاريخ البابوية ما استطاع أن يوسع من الصفحات ، وأوفر لكل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ما يكفل بيان أهميتها فى تلك العصور ، ومدد فى النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ليين منه بغض جذور النهضة الأوروبية الكبرى أوائل العصور الحديثة ، وما كان له أن يعمل غير هذا ، احتراماً لقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز فى شرح أركان التاريخ الأوروبى الغربى فى العصور الوسطى . والناقل الشرقى - مثلى - لا يستطيع إلا أن يظل مرتبطاً إلى تنسيق المؤلف وتوزيعه وتركيزه ، فضلاً عن طريقتة وأسلوبه ، وهذا الارتباط هو عندى أكبر صعوبات النقل والترجمة .

غير أن المؤلف الشرقى فى حل من هذا الارتباط وقيوده ولزومياته ، إذا هو أقبل على التأليف فى تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى من أصوله المتنوعة فى الكتب والوثائق والآثار الكبيرة والصغيرة ، وما عليه إلا أن يظل على موضوعه من « شباك » شرقى رحيب ، لا إعلاء لعاطفته القومية ، ولا اعتزازاً بوضعه الثقافى والحضارى ، بل رغبة فى تطبيق قواعد التنسيق والتوزيع والتركيز كذلك ، مع الاهتمام بعملية التجاوب التاريخى بين الشرق والغرب فى تلك العصور . ذلك أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى - وهو تاريخ إسلامى فى مزاجه العام - ليس وحدة مقفلة ، ولا ثباتاً لعهود خلفاء فى الخلافة ، وولاة فى الولايات ، وملوك فى الممالك المستقلة ، وقصائد من شعر المداحين والهجائين ، والبلاطين والوصافين فى مختلف المناسبات ، حتى يخيل للقارئ أنه يطالع أخبار الفردوس المفقود ، بل هو تاريخ - اجتماعى اقتصادى سياسى - مثل تواريخ سائر الأمم ، وفى معالجة مشكلاته وشرح تطوراته وتياراته ما هو أهم كثيراً من الوقفات الطويلة أمام السنوات والشهور ، لمناقشة ما ورد فى تحديداتها من روايات . والحقيقة أن تاريخ الشرق الأوسط فى العصور الوسطى بحاجة إلى عقول شرقية جديدة ، وإلى تقسيات تاريخية مستمدة من القوانين العلمية الحديثة ، لا التقاليد الموروثة .

وبعد ، فأرجو أن أشكر هنا جميع الذين يرجع إليهم الفضل في نقل هذا الكتاب إلى العربية ، وجميع الذين ساعدوني على إخراجه في هذه الصورة .
وأول هؤلاء وأولئك صديقي الأستاذ محمد شفيق غربال ، وكيل وزارة التربية والتعليم « المعارف » ، ورئيس جمعية التاريخ الحديث ؛ ثم صديقي وتلميذي وزميلي السيد الباز العريبي ، فهو الذي شاركني في كل مراحل العمل في هذا الكتاب مشاركة تنبئ بها صفحة العنوان . وأشكر كذلك أصدقائي وتلاميذي وزملائي محمد سعد السيد منصور ، وعبد اللطيف حمزة ، وشوقي ضيف ، وأحمد عيسى ، الذين أملوني بأنواع من الملاحظات نيابة عن القارئ العربي الحديث ، وهو الذي توخيت من أجله أن يكون هذا الكتاب .

محمد مصطفي زيادة

مصر الجديدة - ١٣ يولية ١٩٥٠ م .
٢٧ شعبان ١٣٦٩ هـ .

تصدير الطبعة الثانية

قرأت هذا الكتاب للطبعة الثانية ، وأدجت نقد الناقلين وهو للأسف قليل ، لأن ما وصلني من المختصين القادرين على نقده قلة ، بل إن بعض هذا الذى وصلني اقتصر على كلمات إطرائية من باب جبر الخاطر للتوفيق فى ترجمة كتاب فى موضوع العصور الوسطى . غير أنى أشكر جميع من كتبوا لى - أو لى شريكى فى الترجمة - وأخص بالشكر أولئك الذين تعرضوا لمادة الكتاب فى صورته العربية ، وألهم صديقى عادل الغضبان ، وعبد الحميد حمدى محمود ، مدرس العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، وسعيد السيد منصور ، مدرس التاريخ بكلية الحربية . ولآخرهم شكر خاص ، إذ قرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، واقترح توضيح ما ظنه غامضاً على قارئ تاريخ العصور الوسطى فى اللغة العربية ، وهدانى باقتراحه إلى شىء من التعديل فى المتن ، وإلى كتابة حاشيتين اثنتين جديديتين ، فى ص ١٠٥ ، ١٣٧ . وأود أن أشكر هنا كذلك أستاذى ج . و . كوبلاند ، إذ نهى لى بعض ما فى الأصل الإنجليزى من مواضع تحتاج إلى عناية خاصة فى النقل إلى العربية ، بعد ظهور الطبعة الأولى ، فاهتديت بهذه التنبيهات فى الطبعة الثالثة . وأود كذلك أن أشكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على إنجاز الكتاب فى طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة - نوفمبر سنة ١٩٥٤ م .
ربيع الثانى ١٣٧٤ هـ .

تصدير الطبعة الثالثة

تطلبت الطبعة الثالثة من هذا الكتاب شيئاً من المراجعة الجديدة . والفضل في ذلك إلى اتساع دائرة القارئ في موضوعات العصور الوسطى الغربية وأسئلة بعض أولئك القارئ المشكورين عن كثير من مصطلح تلك العصور ومناهجها ومرادفاتهما في العصور المقابلة لها من التاريخ المصرى .

ونرجو أن يكون في التعديلات والتصحيحات التى أدخلناها في هذه الطبعة الثالثة ما يكفى للإجابة عما وصلنا من أنواع الأسئلة والملاحظات الناقدة المشكورة، كما نرجو شكر هيئة الإدارة والعمال بدار المعارف على عنايتهم الطيبة بإخراج هذا الكتاب في طبعته الجديدة .

محمد مصطفى زيادة
السيد الباز العرينى

القاهرة نوفمبر سنة ١٩٥٧ م.
ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ.

تصدير الطبعة الرابعة

احتل هذا الكتاب ، منذ طبعته العربية الأولى سنة ١٩٥٠ ، ركناً مرموقاً بعين التقدير في ميدان المعرفة التاريخية ، بجميع بلاد الشرق العربي . ومعظم الفضل في ذلك كله يرجع دائماً إلى مؤلفه الأصلي ، فهو صاحب ابتكاره وتنظيمه وتقسيمه وترتيب حقائقه ، على نمط هذا الكتاب من الصنف العلمي السهل الممتنع ، في موضوع حوادثه عنيفة متزاخمة متراكضة ، على مسرح التاريخ .

واستطاع هذا الجزء الأول الذى بين يدي القارئ الفاحص أن يشتمل على معالم التاريخ الأوربي منذ أيام سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أواخر القرن الخامس ، إلى أيام عظمة البابوية المسيحية والبابا إنوسنت الثالث ، أوائل القرن الثالث عشر . وهذه المرحلة التاريخية المستطيلة هي التي يسميها المؤرخون مرحلة التاريخ الأوربي في العصور الوسطى الأولى ، تمييزاً لها من مرحلة ثانية نهائية لتلك العصور نفسها ، ومساحتها الزمنية ، على وجه التقريب ، من أواسط القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وهي موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب . ويحرص كاتب هذه السطور على تصحيح ما ينبغي تصحيحه من المتن ، وتعديل ما ينبغي تعديله من الحواشي الجديدة ، سواء بالحذف أو بالإضافة ، طوعاً لما يصل إليه بعض الأحيان من اقتراحات بناءة مفيدة محمودة . وها هو هذا الجزء الأول في طبعته الرابعة ، وسوف يتلوه الجزء الثاني منه ، في طبعة من هذا الترتيب العددي في المستقبل القريب .

ويسر كاتب هذه السطور كذلك أن يختم كلمة التصدير ، طبعة بعد طبعة ، بشكر هيئة الإدارة والمطبعة بدار المعارف ، لعنايتها المستمرة أن يخرج هذا الكتاب للناس في سوق المعرفة ، على أحسن ما يكون من دقة وإتقان في الإنتاج المطبعي . محمد مصطفى زيادة

تقديم الطبعة الخامسة

تصدر الطبعة الخامسة من هذا الكتاب والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة قد انتقل إلى جوار ربه ، وتبوأ مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد أفنى - رحمه الله - عمره وصحته في خلق جيل صالح من المؤرخين العرب ، المزودين بالقدرات المتينة والمؤهلات العالية ، التي تكفل لهم خدمة وطنهم العربي الكبير ، وربطه بشتى ينابيع الحضارة العالمية الحديثة .

وسلك الدكتور محمد مصطفى زيادة في سبيل ذلك طرقات شتى ، دون أن يحجم عن ارتياد أصعبها وأوعرها ، ضارباً في كل عمل يسهم وافر وجهده عميق ، لا يتوافر إلا لأصحاب العزم من العلماء المخلصين . وينهض الجهد الذي بذله - رحمه الله - في ترجمة كتاب أوروبا العصور الوسطى ، والذي تقدم الطبعة الخامسة منه ، نموذجاً على ما تحظى به سيادته من أمانة صادقة في العمل ، ومواهب نادرة في تطويع الصعاب العلمية ، وجعلها مركباً ذلولاً للباحثين والعلماء المعاصرين . وقد لمسنا هذه الخصال العلمية الفريدة في سيادته عندما أتيح لي شرف المساهمة معه في ترجمة القسم الثاني من كتاب تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، وربطه بهذه الترجمة الخاصة بالقسم الأول .

وتعتبر هذه الترجمة التي يطالع الباحث الحديث الطبعة الخامسة منها سجلاً أميناً لما قدمه الدكتور مصطفى زيادة من دراسة ممتازة في ميدان الترجمة ، وتراثاً ثميناً يتركه راضياً مرضياً للعاملين في حقل التاريخ بالبلاد العربية . تغمدته الله برحمته الواسعة ، وهياً لمدرسته - أساتذة وطلاباً - السير على نهجه ، واتباع عمله بإحسان ، ورفع قواعد الدراسات التاريخية لتؤتي ثمارها في خدمة الأمة العربية ، ومساندتها في نهضتها المعاصرة .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى